شرح الأربعين النووية

الحديث الخامس والعشرون

ذَهَبَ أَهلُ الدثورِ بِالأُجورِ

اللقاء الثامن والعشرون

الحديث الخامس والعشرون:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أيضاً أَنَّ أُنَاسَاً مِنْ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- قَالوا للنَّبي -ﷺ- يَا رَسُولَ الله: ذَهَبَ أَهلُ الدثورِ بالأُجورِ، يُصَلُّوْنَ كَمَا نُصَلِّيْ، وَيَصُوْمُوْنَ كَمَا نَصُوْمُ، وَيَتَصَدَّقُوْنَ بِفُضُوْلِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: (أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُوْنَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيْحَةٍ صَدَقَة، وَكُلِّ تَكْبِيْرَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَحْمِيْدَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَهْلِيْلَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بالِمَعْرُوْفٍ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِيْ بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا: يَا رَسُوْلَ اللهِ أَيَأْتِيْ أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُوْنُ لَهُ فِيْهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فَيْ حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فَي الحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ). رَوَاهُ مُسْلِمٌ

ترجمة الراوي:

أبو ذر، جُنْدُب بنُ جُنادةَ الغفاريُّ، كان رابطَ الجأشِ، قويَّ الإرادةِ، قادراً على التَّحدي والصُّمودِ في سبيلِ اعتِنَاقِ الدِّينِ الحقِّ، تحمّل في سبيلِ الإسلامِ وأيامه الأُولى أذى قريش، لكنه دقَّ مسماراً في نَعْشِ دِيانتهم، وحطّمَ كبرياءَهم، وأسمعهم كلمةَ الحقّ وهم كارهون، فأقسم ليصرَخنّ بالشهادتينِ بين ظَهرانَي قريش فخرج حتى أتى المسجدَ، فنادى بأعلى صوتِه: أشهدُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ، وأنَّ محمداً رسولُ الله، فثارَ القومُ فضربوه حتى أضجعوه... حتى تدخَّل العباسُ -رضي الله عنه- وأكبَّ عليه فتركوه.

أبو ذرٍّ الغِفاريُّ -رضي الله عنه-، "أولُ من حيّا رسولَ اللهِ -ﷺ- بتحيةِ الإسلام" أخرجه مسلم.

نموذجٌ في الصدق: "ما أقلَّتِ الغبراءُ، ولا أظلّت الخضراءُ، أصدقَ لهجةً من أبي ذر" رواه أحمد وأبو داود.

وفي العلم له قدمُ صِدْقٍ، حتى قال عليٌّ -رضي الله عنه-: "ابو ذرٍّ وعاءٌ مُليءَ علماً ثم أُوكي عليه" أخرجه أبو داود بسند جيد.

وكان يقال يوازي ابنَ مسعود في العلم.

من الوصايا النبويةِ التي نقلها لنا الصحابي الجليل "أوصاني خليلي -ﷺ- بسبعٍ: "أمَرَني بحُبِّ المَساكينِ، والدُّنُوِّ منهم، وأمَرَني أنْ أنظُرَ إلى مَن هو دوني، ولا أنظُرَ إلى مَن هو فَوْقي، وأمَرَني أنْ أصِلَ الرحِمَ وإنْ أدبَرَتْ، وأمَرَني ألَّا أسأَلَ أحَدًا شيئًا، وأمَرَني أنْ أقولَ بالحقِّ، وإنْ كان مُرًّا، وأمَرَني ألَّا أخافَ في اللهِ لَومةَ لائمٍ، وأمَرَني أنْ أُكثِرَ من قولِ: لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ؛ فإنَّهُنَّ من كَنزٍ تحتَ العَرشِ" أخرجه أحمد

رضيَ الله عن أبي ذرِّ وأرضاه وسائرَ صحابةِ رسول الله -ﷺ-، اللهم إنّا نُشهدكَ على محبَّتِهم فاحشُرنا معهم.

منزلة الحديث:

هذا الحديث حديث عظيم، ونفعه عميم؛ إذ يبين أن الطاعات في الإسلام ليست قاصرة على بعض المناسك، بل تشمل كل خير [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: وفي هذا الحديث فضيلة التسبيح وسائر الأذكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضار النية في المباحات، وإنما تصير طاعات بالنيات الصادقات.

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: وهو حديث عظيم؛ لاشتماله على قواعد نفيسة من قواعد الدين.

شرح الحديث:

قال العلَّامةُ ابنُ عثيمين – رحمه الله -: أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يعني استأثروا بالأجور وأخذوها عنَّا، وأهل الدثور: يعني أهلَ الأموال؛ «يصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضولِ أموالهم»؛ يعني: فنحن وهم سواءٌ في الصلاةِ وفي الصيام، ولكنَّهم يفْضُلوننا بالتَّصدُّقِ بفضولِ أموالهم، أي بما أعطاهم الله تعالى من فضل المال؛ يعني: ولا نتصدق.

وهذا كما جاء في الحديث الآخر عن فقراء المهاجرين، قالوا: ويعتقون ولا نعتق. فانظر إلى الهمم العالية من الصحابة – رضي الله عنهم –؛ يغبطون إخوانهم بما أنعم الله عليهم من الأموال التي يتصدقون بها ويعتقون منها، وليسوا يقولون: عندهم فضول أموالٍ؛ يركبون بها المراكب الفخمة، ويسكنون القصور المشيدة، ويلبسون الثياب الجميلة؛ ذلك لأنهم قوم يريدون ما هو خير وأبقى، وهو الآخرة، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 16، 17]، وقال الله تعالى لنبيه –ﷺ–: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: 4].

فهم اشتكوا إلى الرسول –ﷺ– شكوى غِبطةٍ، لا شكوى حسَدٍ، ولا اعتراضٍ على الله– عزَّ وجلَّ – ولكن يطلبون فضلًا يتميزون به عمن أغناهم الله؛ فتصدقوا بفضول أموالهم. فقال النبي –ﷺ–: «أَوَ ليْسَ قد جعَلَ الله لكم ما تصدَّقون به؟!» يعني إذا فاتتكم الصدقة بالمال، فهناك الصدقةُ بالأعمال الصالحة: «إنَّ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً، وكلُّ تكبيرةٍ صدقةٌ، وكلُّ تحميدةٍ صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكرِ صدقةٌ».

ورَوَى البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: جَاءَ الفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ –ﷺ– ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَا، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، فَقَالَ: (أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِمَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ، أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ، تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِين"

رَضِيَ اللهُ عَنْ صَحْبِ رَسُولِ اللهِ –ﷺ– وَأَرْضَاهُمْ، يَجْتَهِدُونَ فِي الْأَعْمَالِ مَا لَا يَجْتَهِدُ غَيْرُهُمْ، وَيَحْزَنُونَ عَلَى فَوَاتِ مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيهِ مِنَ الخَيْرِ؛ يَحْزَنُ فُقَرَاؤُهُمْ عَلَى فَوَاتِ الصَّدَقَةِ بِالْأَمْوَالِ، يَحْزَنُونَ أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ.

عِنْدَ ذَلِكَ دَلَّهُمُ النَّبِيُّ –ﷺ– عَلَى بَابٍ عَظِيمٍ مِنَ الخَيْرِ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَيُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَهُمْ وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ؛ أَنْ يَسَّرَ لَهُمُ العِبَادَاتِ، وَنَوَّعَهَا؛ فَكَمَا يَسْتَطِيْعُ الغَنِيُّ أَنْ يَتَصَدَّقَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَحْرِمِ الفَقِيْرَ هَذَا البَابَ مِنَ العِبَادَةِ؛ بَلْ فَتَحَ لَهُ أَبْوابًا كَثِيْرَةً مِنَ الصَّدَقَةِ؛ وَرُبَّمَا كَانَ بَعْضُهَا أَفْضَلَ مِنَ الصَّدَقَةِ بِالمَالِ دَلَّهُمْ –ﷺ– فِي هَذَا الحَدِيْثِ عَلَى: (التَّسْبِيْحُ وَالتَّحْمِيْدُ وَالتَّكْبِيْرُ والتهليل).

لأنها الباقيات الصالحات التي ذكرها الله تعالى في قوله : (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) [الكهف : 46] ، وقد وردت نصوص كثيرة تدل على فضل الذكر ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ –ﷺ–:«أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي

دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ». قَالُوا بَلَى. قَالَ «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى». قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضى الله عنه مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ. صحيح الترمذي

وقال أبو الدرداء لأن أقول الله أكبر مائة مرة، أحبّ إليّ من أن أتصدق بمائة دينار.

قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-:"من عجز منكم عن اللَّيلِ أن يُكابِدَه وبخِل بالمالِ أن يُنفِقَه وجبُن عن العدوِّ أن يُجاهِدَه فليُكثِرْ ذكرَ اللهِ". الترغيب والترهيب

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ». قَالُوا وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ».

فذكر الله من أعظم صدقات العبد على نفسه، وَهِي العِبَادَةُ المُيَسَّرَةُ؛ الَّتِي يَسْتَطِيعُهَا الغَنِيُّ وَالفَقِيرُ، وَالقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، وَالقَائِمُ وَالقَاعِدُ، وَالرَّاكِبُ وَالمَاشِي؛ عِبَادَةٌ عَلَى اللِّسَانِ خَفِيفَةٌ، وَفِي المِيزَانِ ثَقِيلَةٌ، عِبَادَةٌ بِهَا تَحْيَا القُلُوبُ وَتَطْمَئِنُّ: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد: 28] الذِّكْرُ عِبَادَةٌ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالإِكْثَارِ مِنْهَا، وَرَتَّبَ عَلَيْهَا الأُجُورَ العَظِيْمَةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)[الأحزاب: 41- 42] وَقَالَ تَعَالَى: (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) [الأحزاب: 35].

يَقُولُ ابنُ رَجَبٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: وَقَدْ تَكَاثَرَتِ النُّصُوصُ بِتَفْضِيلِ الذِّكْرِ عَلَى الصَّدَقَةِ بِالْمَالِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ وَيَقُولُ إِنَّ الصَّدَقَةَ بِغَيْرِ المَالِ نَوعَانِ: أَحَدُهُمَا مَا نَفْعُهُ قَاصِرٌ عَلَى فَاعِلِهِ؛ كَأَنْوَاعِ الذِّكْرِ مِنَ التَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَكَذَلِكَ المَشْيُ إِلَى المَسَاجِدِ وَغَيْرُهُ. وَالنَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الصَّدَقَةِ بِغَيْرِ المَالِ: مَا فِيهِ تَعْدِيَةُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ؛ فَيَكُونُ صَدَقَةً عَلَيْهِمْ، وَرُبَّمَا كَانَ أَفْضَلَ مِنَ الصَّدَقَةِ بِالْمَالِ، وَهَذَا كَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ دُعَاءٌ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَكَفٌّ عَنْ مَعَاصِيهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ النَّفْعِ بِالْمَالِ، وَكَذَلِكَ تَعْلِيمُ الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَإِقْرَاءُ الْقُرْآنِ، وَإِزَالَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالسَّعْيُ فِي جَلْبِ النَّفْعِ لِلنَّاسِ، وَدَفْعُ الْأَذَى عَنْهُمْ. وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ لِلْمُسْلِمِينَ وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ. الخ.

أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ اللهِ؛ سواء كانت الأَذْكَارَ المُطْلَقَةَ وَالأَذْكَارَ المُقَيَّدَةَ فهذه صَّدَقَةِ بِغَيْرِ المَالِ.

قال -ﷺ-: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مِرَارٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ) رَوَاهُ وَمُسْلِمٌ. العِتْقُ هُوَ: تَحْرِيْرُ الرِّقَابِ؛ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ القُرُبَاتِ، وَمِنْ أَسْبَابِ الْعِتْقِ مِنَ النَّارِ؛ يَقُولُ النَّبِيُّ -ﷺ-: (أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْتَقَ امْرَءًا مُسْلِمًا، اسْتَنْقَذَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ تَأَمَّلُوا كَيْفَ كَانَ هَذَا الذِّكْرُ يَعْدِلُ الْعِتْقَ؛ بَلْ يَعْدِلُ عِتْقَ أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ؛ أَنَّ مَنْ قَالَهَا (فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ). رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

أما قوله -ﷺ-: «أمرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكرِ صدقةٌ» فإن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أفضل الصدقات؛ لأن دعوة الناس إلى التزام الأوامر وترك النواهي إنما هو صدقة متعدية إلى أفراد المجتمع، ودليل على خيرية هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، وهذا النوع من الصدقة واجب على كل أفراد الأمة كلٌّ بحسبه، علاوة على أنه ضمان لسلامتها وتصحيح مسارها.

أَمْرَ الناس ونُصحَهم بفعل ما أوجب الله عليهم، وترْكِ التفريط والتقصير فيما فُرِض، وعدمِ الإخلال به، ونَهيَهم عن الشركيات والبدع والمعاصي، ونُصحَهم باجتنابها، والبُعدِ عن أهلها ودعاتها وقنواتها وأماكنها ومواقعها، لمِن أهمِّ المُهمات، وأفضل القُربات، وأرفع الحسنات، وأكبر المُنجيات مِن العذاب والعقوبات، بل هو واجب عظيم، لأمر الله به، حيث قال سبحانه: (وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)، ووجوبه على عموم المُكلَّفين ذكورًا وإناثًا بقدر استطاعتهم إذا رأوا المنكر، قال النبي -ﷺ-: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ". رواه مسلم

حَذَّرَ النبيُّ -ﷺ- مِن ترَكِ الأَمرِ بالمعرُوفِ؛ فقدْ رَوَى الإمامُ التِّرمِذيُّ مِن حَديثِ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رضي الله عنهما أنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

كَمْ مِنَ الْأُمَمِ لُعِنَتْ وأُهْلِكَتْ بِسَبَبِ تَرْكِهَا لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: 78، 79] لَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ بَنِي إِسرَائِيلَ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يا هَذَا اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّه لَا يَحِلُ لَكَ، ثُمَّ

يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

قال -ﷺ-: " وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، ولَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ" رواه أَبُو داود والترمذي.

وذَكَرَ الإمامُ ابنُ أبي الدُّنيَا عَن إبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرٍو الصَّنْعَانِيِّ، قَالَ: "أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ أَنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ، مَا بَالُ الْأَخْيَارُ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي، وَكَانُوا يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ"، وَذَكَرَ أَيضًا عَنْ مِسْعَرٍ، قَالَ: "بَلَغَنِي، أَنَّ مَلَكًا، أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، فِيهَا فُلَانٌ الْعَابِدُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ بِهِ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ".

لقد تخلَّى الكثير من المسلمين اليوم عن هذا الواجب؛ فَهَا هُمْ يرون المنكرات تعجُّ بها الطرقات والبقاع فلا يأمرون بمعروفٍ ولا ينهون عن منكر، ولا ينبِّهون غافلًا ولا يخوِّفون مجاهرًا، ولا يحذِّرون لاهيًا لاعبًا، ويخشى أن يعمهم الله بعقاب من عنده، قال الغزالي -رحمه الله- في بيانِ سوءِ عاقبةِ تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ-: "ولو طُوِي بساطُه وأُهملَ علمُه وعملُه لتعطلت النبوةُ، واضمحلت الديانةُ، وعمَّت الفترةُ، وفشت الضلالةُ، وشاعت الجهالةُ، واستشرى الفسادُ، واتسع الخرقُ، وخربت البلادُ وهلك العبادُ".

قال -ﷺ-: "لم تَظْهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قَطُّ؛ حتى يُعْلِنُوا بها؛ إلا فَشَا فيهِمُ الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ في أسلافِهِمِ الذين مَضَوْا". صحيح الجامع

ولأن إنكار المنكر يكون بحسب استطاعة المرء وقدرته فإنه على درجات ومراتب ثلاث وهي:

المرتبة الأولى: باليد؛ وهذه للأمراء والأولياء؛ وقد شرع الله الحدود لبيان إزالة المنكر باليد، فَشَرَعَ القصاصَ لتحفظ به النفوس، وشرع حَدَّيِ القذف والزنا لتُحفظ به بهما الأعراضُ، وشرع حد السرقة لتحفظ الأموال، وحد الخمر لتحفظ العقول.

المرتبة الثانية: تغيير المنكر باللسان، وهذه للعلماء والدعاة ومَنْ تحقَّق لديه أمر المنكر، ولا يُعْذَر بتركه أحدٌ قَدَرَ عليه، وتكون بالموعظة وبالدرس وبالنصيحة وبالكلمة الطيبة وبإهداء الأشرطة والكتب ونحوها.

المرتبة الثالثة: بالقلب، وهذا لا يعذر بها به مؤمن، ومن لم يستطع أن يُنكر بقلبه فليس في قلبه شيء من الإيمان، والإنكارُ بالقلب يقتضي بغض أهل المعصية عند الإصرار والتحذير من شرهم؛ يقول -ﷺ-: " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ " (رواه مسلم).

📄قال الشيخ ابن عثيمين شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

❶الشرط الأول: أن يكون الآمرُ والنَّاهي عالمًا بحكم الشرع، فإن كان جاهلًا فإنَّه لا يجوز أن يتكلم.

الشرط الثاني: أن يكون عالمًا بأن المخاطب قد ترك المأمور أو فعل المحظور.

دخل رجلٌ يوم الجمعة، والنبي -ﷺ- يخطب، فجلس، فقال له النبي -ﷺ-: «أصليت؟» قال: لا. قال: «قُمْ فصَلِّ ركعتينِ وتجَوَّزْ فيهما». لم يأمره أن يقوم فيصلي حتى سأله، وهذه هي الحكمة.

الشرط الثالث: من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ألا يترتب على النهي عن المنكر ما هو أنكر منه، فإن ترتب على ذلك ما هو أنكر منه فإنَّه لا يجوز، من باب درءِ أعلَى المفسدتينِ بأدناهما.

📝ثم إنه يجب على الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر أن ينوي بهذا إصلاح الخلق، لا الانتصار عليهم، فَانوِ بقلبك أنك تريد إصلاح الخَلْقِ، لا أنك تتسلط عليهم، وتنتصر عليهم، حتى تؤجر، ويجعل الله في أمرك ونهيك بركة.

ثم قال النبي -ﷺ-: «وفي بُضْعِ أحدِكم صَدقةٌ»، يعني أن الرجل إذا أتى امرأته، فإن ذلك صدقة، قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في الحرام، أكان عليه وزر؟» يعني لو زنى ووضع الشهوة في الحرام، هل يكون عليه وزر؟ قالوا: نعم. قال: «فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ» والحمد لله. ومعنى ذلك: أن الرجل إذا استغنى بالحلال عن الحرام، كان له بهذا الاستغناء أجر.

📝ومن ذلك أيضًا: إذا أكل الإنسان طعامًا، فإنَّه ينال شهوته بالأكل والشرب، ومع ذلك - لكونه يستغني به عن الحرام - فإنَّه يكتب له به أجر.

ولهذا قال النبي -ﷺ- لسعد بن أبي وقاص: «واعْلَمْ أنَّك لن تنفقَ نفقةً تبتغي بها وجه اللهِ إلا أُجِرتَ عليها، حتى ما تجعلُه في فمِ امرأتِك».

📝ومتى ما أخذ العبد من شهواته المباحة، ونوى بها التقوِّي على طاعة الله كانت طاعاتٍ يؤجر عليها.

📄قال معاذ رضي الله عنه: "إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي ".

📄قال سعيد بن جبير: " متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، ومالم يلهك فليس بمتاع الغرور، ولكن متاع بلاغ إلى ما هو خير منه ".

📄قال الحسن البصري رحمه الله: ": نعمت الدنيا داراً كانت للمؤمن؛ وذلك أنه عمل قليلاً، وأخذ زاده منها للجنة".

🗐قال ابن القيم: عادات أهل اليقظة عبادة، تأملت على أكثر الناس عباداتهم، فإذا هي عادات، أما أرباب اليقظة، فعاداتهم عبادة حقيقية.

🖃فإن الغافل يقول سبحان الله عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: سبحان الله.

ومن المعلوم أن أبواب الخير ليست مقصورة على ما ورد في الحديث، بل وردت أعمال أخرى أخذت وصف الصدقة: ومنها

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ» رواه البخاري، وعَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- «يُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» رواه البخاري، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ « كُلُّ سُلاَمَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ ، يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» رواه البخاري.

🖂 وإرشاد الضال عن الطريق صدقة، والسعي في حاجة الملهوف صدقة، وكل ما هو داخل في لفظة" المعروف" فهو يعتبر صدقة من الصدقات، إما على النفس، أو على المجتمع.

🖃هكذا تتضح سعة فضل الله تعالى على عباده، حيث رتّب الأجر والثواب على ما يمارسه الإنسان في يومه وليلته مما هو مقتضى فطرته وطبيعته، وذلك إذا أخلص فيه النية لربه، واحتسب الأجر والثواب، وهكذا يتسع مفهوم الصدقة ليشمل العادات التي يخلص أصحابها في نياتهم، فهي دعوة إلى احتساب الأجر عند كل عمل، واستحضار النية الصالحة عند ممارسة الحياة اليوميّة.

المراجع:

❶ ذهب أهل الدثور بالأجور: الشيخ محمد بن صالح العثيمين «شرح رياض الصالحين».

❷ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ: مبارك العشوان.